ثلاث كوسوفات في القرن العشرين: قوصوه ـ كوسوفا ـ كوسوفو

محمد م. الأرناؤوط*

بشكل مفاجئ طغى موضوعُ كوسوفو (بالصربية) أو كوسوفا (بالألبانية) على وسائل الإعلام العربية المقروءة والمرئية (وخاصةً في الفضائيات) منذ عامٍ وأكثر، بعد تجاهلٍ طويل لما كان يحدث هناك. فبدا أنّ المشكلة قد انفجرتْ فجأةً، ودون مقدمات. ومن هنا يبدو مهماً التساؤل عن وجود خلفيّة غائبة أو مغيَّبة لم نستطع استحضارها في الوقت المناسب لتساعدنا على فهم ما يجري هناك.

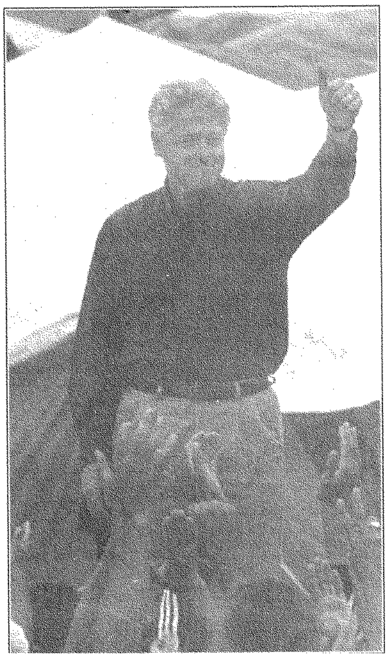

اميركا المنتصرة

١ ـ قوصوه العثمانية

مع صدور قانون الولايات العثماني عامَ ١٨٦٤ تأسستْ ولاية قوصوه (كما كانت تُكتب بالعثمانية) في عام ١٨٦٨، وكانت تضم أغلبيةً البانيةً بسيطةً مع أقليات صربية وبلغارية وتركية وغجرية ويهودية وغيرها. ومع تطور الحركة القومية في البلقان في القرن التاسع عشر تحولتْ قوصوه إلى مركزٍ للحركة القومية الألبانية التي تبلورتْ عام ١٨٧٨ بتأسيس «رابطة بريزرن» في عاصمة الولاية (بريزرن ثم سكوبيه) ودخلتْ في صدام مسلح مع الدولة العثمانية خلال عاميْ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١. ومع مطلع القرن العشرين تصاعدتْ هذه الحركة من جديد، وخاصةً بين عاميْ ١٩١٠ و١٩١٢، وهي فترةٌ شهدت انتفاضاتٍ مسلحةً انتهتْ بدخول قوات الحركة إلى عاصمة الولاية في ١٢ آب ١٩١٢ وقبول استنبول في ١٨ آب بمعظم مطالب الحركة المتمثلة بنوعٍ من الحكم الذاتيّ في الإطار العثمانيّ.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ التواصل العربيّ مع البلقان ومع تطورات الوضع في قوصوه كان يختلف كثيراً عمّا هو عليه الآن. فقد كان العرب ما يزالون داخل الدولة العثمانية، ولذلك كان من الطبيعيّ أن يتابعوا ما يَحْدث في أطراف الدولة، وخاصةً تلك التطورات التي كانت تمسّ ما هو مشترك، عنيتُ: الحركةَ المطالبةَ بالحقوق الثقافية القومية أو بنوعٍ من الحكم الذاتيّ داخل الإطار العثمانيّ. وكان الموظّفون والمدرّسون والعسكريون يتنقّلون بين بلاد المشرق العربيّ وبلاد البلقان، الأمر الذي كان يُسهم بدوره في تعميق

* ـ باحث من كوسوفو مختصّ بتاريخ البلقان، ومدير معهد بيت الحكمة في الأردن.

التواصل والتفاعل بين الطرفيْن. وتكفي الإشارة في هذا السياق إلى نموذج المفكر العربيّ القوميّ ساطع الحصريّ. فقد ذهب الحصريّ إلى ولاية قوصوه موظفاً عثمانياً (في تكوينه وتوجُّهه) ورأى هناك كيف أنّ المسلم الألبانيّ يصطدم بالمسلم العثمانيّ من أجل انتزاع بعض الحقوق القومية. ويعترف الحصري بأنّ اقامته في ولاية قوصوه ما بين عامي ١٩٠٤ و١٩٠٨ سمحتْ له بأن يتعرف لأول مرة على الدافع القوميّ عند المسلمين أيضاً.

ومن ناحية أخرى، كانت الصحافة العربية في سوريا ولبنان ومصر (**المقتبس**، **لسان الحال**، وغيرهما) تحفل بشكل دائم في مطلع القرن العشرين بالأخبار عن قوصوه، وخاصة خلال السنوات ١٩١٠ و١٩١١ و١٩١٢ التي كانت تغذّي الصحافةَ بشكل شبهِ يوميٍّ بأخبار الصدام المتواصل بين الحركة القومية الألبانية المطالبة بالحكم الذاتيّ والسلطة العثمانية. ونتيجةً لهذا الاهتمام، أو لحضور البلقان وقوصوه في الصحافة العربية، كانت الأحداثُ والتطوراتُ الساخنة تحرِّك المشاعرَ والناسَ وتُخرج المظاهراتِ. وهكذا خرجت المظاهرات في مدن بلاد الشام في خريف ١٩١٢ بعد نشوب الحرب البلقانية بين صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونان وبين الدولة العثمانية، وخاصة في إثر انتشار أخبار مجازر في ولاية قوصوه وغيرها من الولايات البلقانية.

ولم يقتصر هذا الاهتمام على الصحافة العربية في موطنها، بل شمل أيضاً الصحافة العربية الصادرة في أوروبا. ويكفي هنا كنموذج أن نشير إلى مجلة **الأمة العربية** التي كان يُصدرها شكيب أرسلان في جنيف، والتي حفلتْ بمقالات عن الوضع الصعب لسكان قوصوه من الألبان بعد أن أصبحوا في إطار مملكة يوغسلافيا التي تأسستْ في عام ١٩١٨.

٢ ـ كوسوڤا تيتو/عدم الانحياز

وصف تيتو (الذي كان يعتزّ بكرواتيته ويوغسلافيته)، في إحدى مقالاته المبكرة، يوغوسلافيا الأولى التي تأسستْ في عام ١٩١٨ بأنّها «سجنُ الشعوب». فقد كانت السلطة المركزية في بلغراد ترفض الاعتراف بوجود شعوب أخرى في هذه الدولة، أو بالمساواة بين الشعوب الموجودة في هذه الدولة. ولذلك تبنّى الحزبُ الشيوعيُّ اليوغسلافيّ، الذي كان في البداية يطالب بتفتيت يوغسلافيا بعد تولي تيتو قيادته عام ١٩٣٧، مفهومَ يوغسلافيا الفدرالية التي تتألف من عدة جمهوريات متساوية. وقد أخذتْ يوغسلافيا الفدرالية شكلَها النهائيَّ في صيف ١٩٤٥ بعد أن تقرر فصلُ إقليم كوسوڤا عن ألبانيا (وكان قد ضُمّ إليها اثر تفتت يوغسلافيا بين ١٩٤١ و١٩٤٥) وضمُّه إلى صربيا/يوغسلافيا. وكاد مصير هذا الإقليم أن يدفع ألبانيا نفسها إلى الانضمام إلى اتحاد فدراليّ مع يوغسلافيا خلال الأعوام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨.

إلا أنّ انفجار الخلاف بين ستالين وتيتو في صيف ١٩٤٨، والذي تحوّل إلى نزاع ايديولوجي بين «الماركسية ـ اللينينية (كما أصبحت الستالينيّةُ تسمِّي نفسَها) و«التحريفيّة» (كما أصبحتْ تُسمَّى التيتوية)، ضَرَبَ نوعاً من الحصار الخانق (الاقتصاديّ والسياسيّ والإعلاميّ) على يوغسلافيا، الأمر الذي جعل القيادةَ هناك تراجع خياراتها. ومن المعروف أنّ ستالين كان يُحكم هذا الحصار لدفع يوغسلافيا إلى الطرف الآخر (الإمبرياليّ) لكي يُثْبت صحةَ رأيه في «التحريفية» اليوغسلافية. وفي المقابل لم يقصِّر الغربُ في دعم يوغسلافيا بالمساعدات والقروض لكي تَصمد في وجه هذا الحصار، باعتباره أولَ شرخٍ في المعسكر الشرقيّ. ولكنّ القيادة اليوغسلافية أخذتْ في مطلع الخمسينيّات تبحث عن طريق ثالثٍ بين «الماركسية اللينينية» و«الإمبريالية»، ووجدتْه في تبني التسيير الذاتيّ في الداخل والانفتاح على العالم الثالث في الخارج وصولاً إلى عدم الانحياز. وقد تبلور هذا التوجهُ لاحقاً في العلاقة الخاصة مع عبد الناصر/مصر، ونهرو/الهند، وفي عقد المؤتمر الأول لبلدان عدم الانحياز في بلغراد في عام ١٩٦٠.

ولكنّ توجُّه بلغراد هذا نحو العالم الثالث، وبالتحديد نحو العالم العربيّ/الإسلاميّ، مع ما كان يستدعيه من مراجعةِ بعض السياسات إزاء المسلمين في يوغسلافيا، كان يقابَلُ بتحفظٍ من بعض الأوساط المتشددة (الصربية المونتنغرية على وجه التعيين) التي كانت ميّالة إلى الشرق بالمفهوم الايديولوجيّ (السلافيّ/السوڤيتيّ) ومتحفِّظةً من الانفتاح على الشرق بالمفهوم الحضاريّ (العربيّ/الإسلاميّ). وقد حُسِمَ هذا الموقفُ في عام ١٩٦٦ حين أُبعِدَ «الرجل الثاني» في يوغسلافيا (الكسندر رانكوڤيتش) مع الجناح الذي يمثّله في قيادة الحزب والدولة (وخاصة في أجهزة الأمن). وقد شكّل هذا الإبعاد منعطفاً بالنسبة إلى المسلمين في يوغسلافيا، إذ تحوّلوا معه من أقلية محاصرة إلى قوة فاعلة في يوغسلافيا التيتوية الجديدة (١٩٦٦ ـ ١٩٨٠). ويكفي للتدليل على ذلك أنه بسبب الحصار والضغط على المسلمين في يوغسلافيا، اضطرّ حوالى ربع مليون مسلم يوغسلافيّ إلى الهجرة إلى تركيا ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٦. وقد بقي هذا الموضوع «مطوياً» حتى الثمانينيات، حين استغرب أحدُ الزعماء المقرّبين من تيتو كيف أنّ أحداً لم يتساءل طوال تلك

السنوات عن السبب الذي يدفع بعشرات الآلاف إلى الهجرة من «بلد اشتراكيّ» إلى «بلد إقطاعيّ متخلّف». وبالمقارنة مع الماضي فقد أخذ المسلمون يشاركون في قيادة البلاد لأول مرة على مستوى وزراء ورؤساء حكومةٍ ورؤساء دولة؛ وهذا المستوى كان - على كل حال - ينجسم مع حجمهم (فقد شكّلوا ٢٠٪ عام ١٩٧١ و٢٥٪ من سكان يوغسلافيا عام ١٩٩١).

ومع التعديلات الدستورية التي جرت بعد عام ١٩٦٦، وخاصة مع دستور ١٩٧٤، أصبحتْ يوغسلافيا تتألف من ثماني وحدات فدرالية متساوية (هي ست جمهوريات وإقليمان). وأصبح المسلمون يتولّوْن عملياً مسؤولية وحدتيْن فدراليتيْن: البوسنة وكوسوفا. والواقع أنّ السبعينيّات شهدتْ ذروة التعاون اليوغسلافيّ - العربيّ، وكانت هذه بالذات هي الفترة التي برزتْ هاتان الوحدتان في العالم العربيّ لتمثل كلٌّ واحدةٍ بطريقتها التغييرَ الذي طرأ على يوغسلافيا الجديدة.

ومع هذا التواصل الجديد مع العرب على المستوى الثقافيّ أخذ المثقفون العرب يشقّون الطرقَ، التي كانت مغلقةً حتى ذلك الحين، إلى قلب كوسوفا ليشاركوا في المهرجانات والندوات الثقافية. فجاء في السبعينيّات والثمانينيّات أحمد سليمان الأحمد وعبد الوهاب البيّاتي وعلي عقله عرسان وليلى العثمان ووليد أبو بكر وعبد الحميد بن هدوقة وغيرُهم، كما تُرجم كثيرٌ من الأعمال الأدبية العربية إلى اللغة الألبانية. وفي المقابل خرج المثقفون الألبان في كوسوفا من عزلتهم الطويلة ليشاركوا في المهرجانات والندوات المختلفة في البلدان العربية. وفي هذا الإطار أخذتْ «رابطةُ الكتاب في كوسوفا» الضوءَ الأخضر لتوقيع اتفاقية تعاون مع اتحاد الكتّاب العرب في سوريا خلال عام ١٩٧٨، وتنظيم أسبوع ثقافيّ في دمشق خلال ١٩٧٩ شارك فيه جمعٌ من الأدباء الألبان. وخلال هذه الفترة أيضاً تُرجمتْ أعمالُ الشعراء الألبان إلى العربية (**مختارات من الشعر الألباني في كوسوفا** - دمشق ١٩٨١)، كما صدرتْ رواية **الريح والبلوط** للروائي الألبانيّ سنان حساني (بيروت ١٩٨٦) الذي تولّى رئاسة يوغسلافيا خلال عاميْ ١٩٨٦ و١٩٨٧.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه، مع هذا النشاط الكوسوفيّ في الخارج، شاع استعمالُ الصيغة الألبانية «كوسوفا» (بالألف) دلالةً على ارتباط الاسم بالأغلبية الألبانية في الإقليم. حتى إنّ أوّل قاموس يوغسلافي/عربي (سراييفو ١٩٨٨) أخذ أيضاً بهذه الصيغة التي درجتْ في المنطقة العربية خلال تلك الفترة.

٣ - كوسوفو ميلوشيفيتش/الارتداد والانهيار

مع الإصلاحات الدستورية التي بدأتْ في عام ١٩٦٧ برزتْ معارضةٌ صربيةٌ محدودةٌ، تمثلتْ فيما سُمّي بـ **الكتاب الأزرق** عام ١٩٦٨؛ إلا أنها كانت محدودة في إطار الجو العام الذي كانت تعيشه البلادُ بعد التخلص من «دولة» أجهزة الأمن التي كانت قد تحولتْ إلى دولةٍ داخل دولة.

وبعد وفاة تيتو في ١٩٨٠ بدأتِ المعارضةُ الصربيةُ تَبرز من جديد وتتحول إلى قوة تستقطب فئاتٍ ثلاث: ١) الجيش الذي بقي ذا أغلبية صربيةٍ - مونتنغريةٍ مؤثِّرة؛ ٢) الكنيسة الصربيّة الارثوذكسيةَ التي كانت لها تقاليدُ عميقةُ الجذور في المجتمع الصربيّ، والتي أخذ دورُها يتجدد نتيجةً للأزمة الاقتصادية - الاجتماعية - السياسية في مطلع الثمانينيّات؛ ٣) الطبقة المثقفة التي كانت نواةَ المعارضة (داخل اللجنة المركزية للحزب) عامَ ١٩٦٨، والتي أخذت تروِّج الآن لأفكار جديدة. ومن هذه الأفكار أنّ الصرب كانوا ضحيةَ الإصلاحات الدستورية خلال أعوام ١٩٦٧ - ١٩٧٤، وأنّ صربيا أصبحت الآن مجردَ وحدةٍ فدراليةٍ مع سبع وحدات فدرالية أخرى في يوغسلافيا بعد أن خسرتْ سيطرتها على كوسوفو وفويفودينا والبوسنة والجبل الأسود، وأنّ توجُّه تيتو نحو عدم الانحياز إنّما كان يُبعد صربيا عن محيطها السلافي/الأوروبيّ ويزجّها في العالم الثالث (العربيّ/الإسلاميّ) الذي تنتقل منه مؤثراتٌ مثيرةٌ «للقلق والخطر» في زعم أصحاب تلك الأفكار الجديدة (كانبعاث الإسلام واتساع دور المسلمين في يوغسلافيا)، بل وصل الأمر بأولئك إلى الحديث عن التآمر الكاثوليكيّ - المسلم (السلوفينيّ - الكرواتيّ - البوسنويّ - الألبانيّ) على الصرب الأرثوذكس وعن الخطر الإسلاميّ الذي يهدِّد صربيا من جديدٍ نتيجةً لازدياد عدد المسلمين في صربيا/يوغسلافيا... الأمر الذي أخذ يحرِّك من جديد مشاعرَ كوسوفو القروسطيةَ.

وهكذا أخذتْ في الثمانينيّات تتلاحق الدراساتُ والنشراتُ التي تتحدث عن مغزى كوسوفو بالنسبة إلى صربيا، التي أصبحت الآن «مهدَ الصرب» و«قدسَ الصرب» و«مركزَ الكنيسة الصربية» و«قلبَ الدولة الصربية». وقد ساهمتْ تلك الدراساتُ والنشراتُ في إحياء مشاعر القرون الوسطى مع اقتراب الذكرى الـ ٦٠٠ لمعركة/أسطورة كوسوفو التي جرت في ١٣٨٩م. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المعركة/الأسطورة يشوبها الغموضُ والإلغاز، إذ إنّ مصادر تلك الفترة كانت تشير إلى نصرٍ صربيٍّ على الأتراك، ولكنّ القصائد الشعبية الملحمية (التي ظهرتْ بعد حوالى قرن) حوّلتِ المعركة إلى مأساةٍ

وشَحَنتِ الصرب على الدوام بمشاعر الانتقام من الأتراك/المسلمين.

وفي إطار الحديث عن «الخطر الإسلاميّ» الجديد الذي يُهدِّد صربيا/يوغسلافيا بدا أنّ المشاعر ضد «الأتراك الجدد» (الألبان) أخذتْ تتصاعد مع الذكرى الـ ٦٠٠ للمعركة/الأسطورة، التي أخذت تلحّ على تحويل الانكسار في ١٣٨٩ إلى انتصار في ١٩٨٩، وبالتحديد إلى بسطِ سيطرة صربيا من جديدٍ على كوسوڤو. وقد برز في هذا الجو المحموم من الصفوف الحزبية الخلفية سلوبودان ميلوشيفيتش، الذي أدرك بسرعةٍ قوةَ هذه الموجة القومية الصربية القادمة التي يمكن أن تُوصله إلى السلطة، وتمكّن ـ بخطابيته، ومزاودته في موضوع كوسوڤو، ودعوته إلى «توحيدِ صربيا» و«تجميع الصرب» ـ من الوصول إلى السلطة في صربيا عام ١٩٨٧. والحق أنّ وصول ميلوشيفتش إلى السلطة أَطْلَقَ قوةَ الشارع الصربيّ في كل يوغسلافيا، وخاصةً في الوحدات الفدرالية التي كانت تسيطر عليها بلغراد بشكلٍ ما قبل عام ١٩٦٦. وهكذا تمكّن ميلوشيفيتش، بعد أن سيطر على الأجهزة الحزبية والأمنية والإعلامية، من تصعيد الضغوط على القيادات الموجودة في الوحدات الفدرالية المجاورة بواسطة المظاهرات الصاخبة التي كانت تتحرك بحسب الحاجة اليها. كما تمكّن من إلغاء الحكم الذاتيّ الموجود طبقاً لدستور ١٩٧٤ في كلٍّ من كوسوڤو وفويفودينا. وفي غضون ذلك كان ميلوشيفيتش قد تمكّن أيضاً، بواسطة المظاهرات الصاخبة، من إسقاط القيادة الموجودة في جمهورية الجبل الأسود وإيصالِ قيادةٍ مواليةٍ له. وهكذا، خلال سنتين فقط (١٩٨٧ ـ ١٩٨٩)، بدا أنّ ميلوشيفيتش قد قطع منتصف الطريق، بعد أن أصبحتْ بلغراد تسيطر بالفعل على أربع وحدات فدرالية (صربيا والجبل الأسود وكوسوڤو وفويفودينا) من الوحدات الفدرالية الثماني، وبدا أنّ الدور قد حلَّ الآن على البوسنة وكرواتيا.

ومع هذا التحول بدا أنّ الوحدات الفدرالية الأخرى أخذتْ تخشى على نفسها مما سُمِّي في ذلك الوقت بـ «كَوْسَڤَة» Kosovozation يوغسلافيا، أي أن يَلْحق بها المصيرُ الذي لحق بكوسوڤو باسم «تجميع الصرب»، وهو ما كان يهدد بشكل خاص البوسنةَ وكرواتيا المجاورةَ التي يمثّلُ الصربُ فيها نسبةً لا بأس بها من السكان.

وفي هذا الجو أخذتْ مشاعرُ الاستقلال تتصاعد في سلوڤينيا وكرواتيا والبوسنة. وأدّى إعلانُ الاستقلال في هذه الجمهوريات خلال عام ١٩٩١ إلى اندلاع الحرب مع سلوڤينا وكرواتيا، وأخيراً في البوسنة. وإذا كان الغربُ قد تدخّل بسرعةٍ في حالتيْ سلوڤينيا وكرواتيا، فإنّ الحرب في البوسنة قد طالت أكثر (فقد استمرت من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥) وتحولتْ إلى مأساة مع التطهير العرقيّ الذي مورس بشكلٍ منظّم ضد المسلمين. وبالمقارنة مع حالتيْ سلوڤينيا وكرواتيا، اللتيْن بدتا بين دولتيْن، فإنّ بلغراد حاولتْ أن تبدو غير متورطةٍ في الحرب الدائرة في البوسنة بسبب العقوبات الدولية والتهديدات بالتدخل. وقد رأى ميلوشيفيتش أنّ الحل الوسط في البوسنة (أي «اتفاق دايتون») سيقوّي موقفه في ما بقي من يوغسلافيا بعد اعترافِ الغرب بدوره.

وعلى الرغم من أنّ البعض رأى في استقلال كرواتيا واتفاق دايتون بدايةَ النهاية للمشروع الصربيّ الكبير (صربيا الكبرى)، الذي روّج له ميلوشيفيتش وقاد إلى انهيار يوغسلافيا خلال عاميْ ١٩٩١ و١٩٩٢، فإنّ ميلوشيفيتش لم يدرك أنّ التحالف الأوروبيّ/الأمريكيّ الذي تحمّله في البوسنة لا يمكن أن يتحمّله في كوسوڤو. فقد زاد الوضع سوءاً في كوسوڤو خلال عامي ١٩٩٥ و١٩٩٦ وأخذ يهدِّد بالانفجار، على الرغم من التدخل الأوروبيّ/الأمريكيّ لامتصاص التوتر ودَفْع بلغراد وپرشتينا إلى التفاوض لإطلاق الحكم الذاتيّ بالتدريج. وبالمقارنة مع البوسنة كان انفجارُ الوضع في كوسوڤو أكثرَ إقلاقاً للغرب لأنه يهدّد بالانتقال إلى مكدونيا والبانيا المجاورة بسبب التركيبة الديموغرافية المتداخلة، أو ربّما انتقل إلى نطاق أوسع قد يشمل بلغاريا وتركيا واليونان... الأمر الذي كان سيهدد الاستقرارَ في أوروبا الجنوبية الشرقية. ولذلك خَطَتْ أوروبا والولايات المتحدة خطوةً غير مسبوقة حين وسَّعتْ في «بيان بون» (كانون الأول ١٩٩٧) من مفهوم دايتون، فاعتبرتْ أنه يشمل كوسوڤو أيضاً لا البوسنة وحدها. وبعبارةٍ أخرى، اعتبرتْ دولُ مجموعة الاتصال حول البوسنة، ولأول مرة، أنّ كوسوڤو لم تعد مشكلةً داخليةً تخصّ صربيا ويوغسلافيا وحدهما، بل تخصّ أوروبا أيضاً التي تخشى على أمنها في حال انفجار الوضع.

وعلى الرغم من هذا التوجه نحو تدويل مشكلة كوسوڤو، فإنّ ميلوشيفيتش لم يَقُمْ بأية خطوةٍ أو بادرةٍ لحلّ المشكلة في الإطار اليوغسلافيّ أو على الصعيد الصربيّ ـ الألبانيّ، بل قام عام ١٩٩٧ بـ «حرق» الزعيم الألبانيّ المعتدل د. إبراهيم روغوفا، الذي كان يمكن أن يتوصل معه إلى حلٍّ وسط. فقد تورط روغوفا في ١٩٩٦/٩/١ بالتوقيع مع ميلوشيفيتش على اتفاقٍ يقبل بما هو أقل من الحد الأدنى بالمقارنة مع الحكم الذاتيّ الموجود قبل ١٩٨٩، الأمر الذي جعل أنصاره ينفضّون عنه ويبحثون عن بديلٍ آخر (العمل المسلح والاستقلال) خاصةً بعد أن عجز روغوفا عن تنفيذ ذلك الاتفاق المتواضع الذي تم التوصلُ إليه.

ولا شك أنّ هذه التطورات قد تداخلتْ خلال عام ١٩٩٨ في جدول الأعمال الأوروبية ـ الأمريكية حول البلقان،

ومستقبل أوروبا، والعلاقةِ مع روسيا. وفي هذا الإطار كانت هناك في الأفق إشاراتٌ عديدةٌ إلى الدور الجديد للأطلسيّ في أوروبا، وخاصةً بعد قراره ضمَّ تشيكيا وبولونيا وهنغاريا. وجاءت مشكلةُ كوسوفو لتوفِّر فرصةً مناسبةً لكي يعبِّر فيها الأطلسيُّ عن الدور الجديد الذي يمكن أن يقوم به خلال القرن القادم، وهو ما دَخَلَ في صلب ميثاقه الجديد الذي تم إعلانه في قمة واشنطن بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيسه.

ومع رضوخ ميلوشيفيتش للمشروع الجديد الذي يتجاوز اتفاق رامبوييه (الذي أدى رفضُهُ إلى بدء العمليات العسكرية وتدمير صربيا) تكون صربيا قد تعرَّضتْ لأصعب هزيمةٍ في القرن العشرين. فقد كانت اثر كل هزيمة (سواء في الحرب العالمية الأولى أو الثانية) تحصل على مكاسب، ولكنّها فقدتْ هذه المرة كوسوفو، التي صَعَدَ بفضلها ميلوشيفيتش إلى السلطة وسيخسر بسببها السلطةَ. وهكذا يمكن القولُ في النهاية إنّ كوسوفو تحولتْ من رمز قَرْوَسطيٍّ، إلى رمز الارتداد على يوغسلافيا التيتوية القائمة على دستور ١٩٧٤ لصالح «صربيا الكبرى»، ولكنها أدت في عام ١٩٩٩ إلى أن تخسرها صربيا بعد أن خَسرتْ يوغسلافيا.

* * *

لقد كانت كوسوفو ـ كوسوفا طيلة القرن العشرين بؤرة نزاعٍ بين أكبر شعبينْ في غرب البلقان (الصرب والألبان) إذ كان كل طرف يعتبرها ضروريةً لمشروعه القوميّ (صربيا الكبرى من جهة وألبانيا الكبرى من جهة أخرى). ويتشابه الوضعُ هنا مع ما كانت تمثله مكدونيا بالنسبة إلى الصرب والبلغار، والبوسنة بالنسبة إلى الصرب والكروات طيلة قرن وأكثر. والواقع أنّ البلقان (العالم الثالث الأوروبيّ) قد فشل طوال قرن وأكثر في التوفيق بين طموح التحديث والتغريب (اللحاق بأوروبا الغربية) وبين استلهام حدود الماضي القروسطيّ (صربيا الكبرى، بلغاريا الكبرى، كرواتيا الكبرى الخ)، الأمر الذي جعل الهوّة بينه وبين أوروبا الغربية قائمةً ومولِّدةً باستمرارٍ للتوتّر وعدمِ الاستقرار في المنطقة مع ما يمثّله ذلك من رعبٍ وتهديدٍ لأوروبا الغربية.

ومن هنا رأى الاتحـادُ الأوروبيّ/الحلف الأطلسيّ في «كوسوفو ٩٩» فرصةً لإدراج البلقان من جديدٍ في الترتيبات الأوروبية/الأطلسية للقرن القادم. فالاتحاد الأوروبيّ والحلف الأطلسيّ لا يريدان لهذا الإقليم أن يكون كوسوفو (صربيا) ولا كوسوفا (البانيا)، بل يفضلان الآن أن يجعل منه جسراً صربياً ـ البانياً نحو الاتحاد الأوروبيّ. فالحلّ بالنسبة إلى البلقان، بعد أكثر من قرن من النزاعات والحروب وملايين الضحايا، ليس في «صربيا الكبرى» ولا في «البانيا الكبرى» بل في «أوروبا الكبرى» التي تتكدس فيها تقاليدُ «الحرية» و«الديموقراطية» والمشاركة الفاعلة سواء بالنسبة إلى الغالبية (الألبانية) أو الأقلية (الصربية). فالتطهير العرقيّ الذي تمتدّ جذوره في البلقان أكثر من قرن، والذي اشتهر به الصربُ في البوسنة وكوسوفو في التسعينيّات فقط، لا يمكن أن يكون النموذجَ المقبولَ الآن بعد سيطرة القوات الأطلسية وبداية الإدارة الأوروبية للإقليم. وإذا نجحت الإدارةُ الأوروبيةُ الأطلسية في «أوْرَبَة» كوسوفو/كوسوفا خلال الفترة الانتقالية تكون قد نجحت في «أوْرَبَة» البلقان، لأنّ الكيانات المجاورة (الجبل الأسود والبانيا ومكدونيا وبلغاريا) كانت مهدّدة بالكَوْسَفَة ايضاً. وقد عبّرتْ أخيراً السيدة مادلين أولبرايت، وزيرةُ الخارجية الأمريكية خلال زيارتها للبلقان في ١٩٩٩/٦/٢٢، عن هذا الوضع بالقول إنّ أوروبا لن تستقر إلا بعد استقرار البلقان.

اعتذار

تعتذر الآداب عن عدم إدراجها في هذا العدد مواداً كانت قد وعدتْ بها في العدد السابق. وستنشر في الأعداد القادمة مقالات لـ: عبد الرزّاق عيد، أيمن حدّاد (ملفّ عن مالكوم أكس)، يسري الأمير وجان طنّوس (ملف عن إميلي نصر الله)...

وأقرأ في الأعداد القادمة لـ: فيصل درّاج. فضلاً عن ملف كامل بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على ولادة الإمام محمد عبده، ومناقشة أو أكثر لملفّي الترجمة.